

المهاجر بروحه

لم يكن الشابي يعرف لغة أجنبية ، ولم يكن متلائماً بالروح
أو بالعقل مع الثقافة العربية القديمة المسيطرة على بيئته في
تونس ، ولذلك بدأ يبحث عن مكان (مهاجر) إليه
بروحه ...

مكان يتلاءم معه ويجد فيه عالماً يشبه عالمه ويعبر عن أحاسيسه الجديدة
وأفكاره الجديدة ، وقد بدأ الشابي يهتم اهتماماً واسعاً بالأدب المترجم ،
وأخذ يقرأ المترجمات عن الأدب الفرنسى ، منذ صباه الأول أى قبل أن يبلغ
الخامسة عشرة من عمره .

واكتشف الشابي أيضاً أدب المهجر ، وأدب جبران خليل جبران بوجه
خاص ، وقد لقى الشابي فى أدب المهجر لونا من الأدب ، خالياً من العيوب
التي أحسها فى الأدب العربى القديم ، بل والتي أحسها ومازال يحسها كل دعاة
التجديد فى أدبنا المعاصر ، فالشعر المهجرى عند شعرائه اللامعين يخلو من
الاهتمام بالموضوعات السطحية مثل المدح والهجاء وتوديع مسافر واستقبال
قادم ، ويخلو هذا الشعر أيضاً من التزعة الخطائية وتحل فيه روح وديعة
إنسانية هامة ، كما أن شعر المهجر يحمل محاولات عميقة للتعبير عن أفكار
فلسفية شاملة ، وذلك كان مطلباً هاماً من مطالب الشابي ... أن يجمع
الشعر بين الفن والفلسفة ، ألا يقف الشعر عند الحدود السهلة البسيطة بل
ينطلق إلى آفاق إنسانية عالية ... وكان الشعر المهجرى عند أبى ماضى

ونسب عريضة وجبران وميخائيل نعيمة نوعاً من الفلسفة الإنسانية والتأملات العميقة في النفس وفي الطبيعة وفي الحياة عموماً .

وهذه العناصر الفنية والفكرية في شعر المهجر جعلت هذا الشعر هو المدرسة الأساسية التي تربى فيها وعى الشابي الفني .

ولكن أهم شخصية كان لها تأثيرها على الشابي من أدباء المهجر هي شخصية (جبران خليل جبران) . لقد أشعل جبران بكتابته أكثر من معنى رئيسي في عقل الشابي نفسه ، فقد كان جبران ثائراً متمرداً على وضع المجتمع العربي ، وكان يكتب من بعيد كتابة حارة لينادي أبناء الشرق العربي ، ويطلبهم بالخروج من قيود التقاليد القديمة ، ومن استعباد أرواحهم للماضي ، وتجارب الشابي مع هذه الدعوة الجبرانية تجاوباً قوياً . فجبران كان يعبر عن دعوته تعبيراً أدبياً ثائراً مما كان له صدها الكبير عند الشابي الذي كان يشبه أرضاً متعطشة إلى الثورة والتغيير الاجتماعي والإنساني الشامل .

كان جبران يقول :

(بلية الأبناء إنما تأتيهم من ميراث الآباء ، ومن لا يحرر نفسه من عطايا آبائه وأجداده يظل عبداً للأموات حتى يصير من الأموات .

(والشرقيون يعيشون في مسارح الماضي ، ويميلون إلى الأمور السلبية المفككة ، ويكرهون المبادئ والتعاليم الإيجابية التي تلسعهم وتنبههم من رقادهم العميق المغمور بالأحكام الهادئة ، إنما الشرق مريض تناوبته العلل ، وتداولته الأوبئة حتى تعود السقم ، وألف الألم ، وأصبح ينظر إلى أوصابه وأوجاعه كصفات طبيعية بل كخلال حسنة ترافق الأرواح النبيلة والأجساد الصحيحة ، فمن كان خالياً منها عد ناقصاً محروماً من المواهب والكمالات العلوية) .

تلك هي كلمات جبران وأفكاره ... ومثل هذه الأفكار الثائرة على وضع العقل العربى والروح العربية فى بداية هذا القرن كانت هى نفسها الأفكار التى يعيشتها الشابي ويحس بها ، فلم يكن غريباً أن يهاجر الشابي بروحه إلى أدب جبران وعالم جبران ، ففيه يجد نفسه على حقيقتها بينما لا يجدها فى عالمه الواقعى ... فى مجتمع تونس فى ذلك الوقت ..

ومما بكشف لنا مدى تأثير الشابي بجبران ما كتبه الشابي فى رثاء جبران سنة ١٩٣١ ، وسوف ننقل هنا نص مقال الشابي لأهميته فى الدلالة على التأثير الكبير الذى تركه جبران فى شخصية الشابي . يقول الشابي :

(مات جبران ولكن روحه لن تموت

مات جبران وأصبح سرّاً صامتاً فى ضمير الموت وخيلاً سارياً فى مجاهل الأبد الغامض الرهيب .

أجل مات جبران واختفى عن هذا العالم إلى الأبد وأصبح بعيداً بعيداً عن أبناء هذا الوجود .

مات جبران ، مات ذلك الذى جلبته الحياة من طين وماء وكبلته بأصفاد الزمان والمكان واتخذت منه قسبة جوفاء تتغنى بها حيناً ثم تلقىها عيداناً محطمة فى أودية الموت ، أما ذلك الذى صاغه الإله من جوهر الحياة ، أما تلك الجذوة الإلهية المتأججة فى قلب جبران ، أما روح جبران الغريبة الهائمة الواقعة فى مفترق سبل الحياة حائرة متشككة متسائلة مفكرة ، شادية حاملة . أما عبقرية ، جبران أما فن جبران فكل هاته حية خالدة ، لا ولن تموت ، بل إنها ستظل مصدر وحى ومهبط إلهام وستظل مقدسة جليلة إلى أبد الدهر .

كان جبران روحاً شعرية حاملة ، وأنشودة سماوية هائمة وبخوراً سحرياً يتضوع فى هيكل هذا الوجود ، ولبلاً إلهياً غريباً غنى للبشرية المحزونة أغانى

الحب والجمال وعلمها محبة الحق وأراها بهاء السماء .

ترنم جبران بأصوات قلبه وتنهدات روحه في عهود الشباب الجميلة
المخضبة بالدموع والأحلام فكانت أناشيده رقيقة ناعمة كأغاني الملائكة ،
وكانت داوية كأصوات البحار وكانت شجية ساحرة كأناث ناى بعيد .

وتألم جبران فكانت آلامه لهيباً شعرياً يرفرف حول أرواح البشر بأجنحة
من نور وكانت زوابع من نار تتأجج فتلتهم الأنصاب والهشيم .

وفكر جبران فكانت أفكاره عميقة كالموت جميلة كالحياة . فكر
كالفيلسوف وتكلم كالشاعر فكان لأدبه رقة الشعر وجلال الفلسفة وكان
له فن غريب تتعانق في ظله الحقيقة السافرة والخيال الجموح .

وكان جبران ثورة في الأدب العربى ولكنها ثورة حبسية ، جانب البناء فيها
أكثر من جانب الهدم والتخريب ، ثورة أيقظت الناس من سبات الدهور
وأرهم آفاقا كانت مجهولة ، وأسمنتهم هزيم الحياة وعلمتهم أن روح الشاعر
كتر لا يفنى وثورة لا تبعد وأن في هذا العالم شيئاً آخر غير الأمس البعيد .

ويمتاز أدب جبران في رأيي بميزتين هما في نظري دعامتاً مجده الذى
لا يزول : الميزة الأولى : الجدة والطرافة في أسلوبه وفي معانيه وفي روحه ،
فإنك لتقرأ أدبه فإذا أسلوب موسيقى متجاوب النبرات ومعان خيالية رائعة
وروح متأرجحة ترفرف بين السطور .

الميزة الثانية: الحياة التى لا بد أن تحرك في صدرك حين تقرأه عاطفة أو فكراً
أو خيالاً بل إنها تكرك على أن تفكر أو تشعر أو تتخيل ، ومن لا يحركه
أدب جبران ولا يثير شعوره فإنما هو روح مقفرة وقلب مهروم .

وسيقول الناس عن ثورة جبران على قواعد اللغة العربية أحياناً . ولكن
ذلك لا يحط من قيمة جبران فما هى إلا هفوة تغفرها له تلك الثورة المعنوية

الخالدة التي خلقها جبران للعربية وستم الدهور وتتعاقب الأجيال وينسى الناس عن جبران كل شيء ولكن لا يستطيعون أن ينسوا هاته الحقيقة : لقد كان جبران عاطفة مشبوبة وخيالاً جامحاً وفكراً قوياً يجوب أعماق الحياة . وسيقول الصديق لصديقه وهو يحادثه في الليلة القمرء تحت ظلال النخيل أو على شاطئ اللجة الداوية :

(حقاً لقد كان جبران رسول الحق والحب والجمال) .

هذا هو ما كتبه الشابي في رثاء جبران وقد نشرته له جريدة (الزمان) التونسية في ٨ يوليو سنة ١٩٣١ ثم أعادت جريدة العمل التونسية نشر هذا الرثاء في ٦ ديسمبر سنة ١٩٧٤ كنص مجهول من كتابات الشابي .

والذي يمكننا أن نخرج به من هذا الرثاء هو أن الصلة كانت عميقة بين الشابي وأدب جبران . لقد وجد الشابي في جبران تجسداً للثورة الأدبية والفكرية التي كان يحلم بها الشابي ... فجبران ثائر على الأدب التقليدي وثائر على المجتمع العربي التقليدي ، وهو يحاول في أدبه أن يهز الإنسان العربي ليستيقظ من النوم الحضاري العميق الذي كان يعيش فيه ويعانيه في أوائل القرن العشرين . وقد استمع الشابي إلى صوت ، ووجد في هذا الصوت (نغمة) متميزة كان يبحث عنها في عالمه المتأخر المتخلف الذي تحولت فيه سائر النغمات إلى أصوات تقليدية لا تثير فيه عاطفة ولا تحرك فكرة . ومن هنا ارتبط الشابي بجبران وتأثر به وأخذ عنه ووجد فيه نموذجاً (للبطل) الجديد الذي يحلم به .

ومن الممكن أن تتابع الأفكار المتعددة التي نادى بها جبران وكان لها تأثير قوى على أفكار الشابي مثل رأيه المتحرر السامي في المرأة ، ورأيه المتحرر في الدين وهو الرأي الذي يقف ضد الكهانة ويعتبرها كما يقول جبران -

(الحرفة الأولى التى ابتدعها الإنسان بدون حاجة حيوية أو داع لها) ومن الممكن أن نتابع أيضاً تعبير جبران عن إحساسه بالغربة بين قومه وعدم فهمهم لأفكاره ، ووحدته الروحية كداعية ثائر مجدد بين شعب مستريح للأفكار القديمة مستكين لها . يمكننا أن نتتبع كل هذه الأفكار التى تجاوزت أصداؤها بقوة فى شعر الشابى وأفكاره وشخصيته ، ولكن الأفضل أن نقف عند النقطة الرئيسية وهى أن جبران والشابى كانا علامة من علامات الثورة الرومانسية فى الوطن العربى ، بل كان من أبرز طلائع هذه الثورة والمعبرين عنها والذين دفعوا ثمنها بشجاعة الأبطال الذين يدخلون معركة يؤمنون بها كل الإيمان (1) .

والثورة الرومانسية فى الحقيقة كانت حركة شاملة عميقة فى أدبنا وحياتنا معاً ، فهذه الثورة هى أول دعوة حقيقية لكى يعود الأديب إلى نفسه بدلاً من أن يظل دائماً خارج نفسه : يمدح ويهجو وينظم الأحداث الجميلة والقيحية معاً ، وهذا الموقف الفنى القديم كان يجعل الشاعر دائماً تابعاً لغيره ... لوجيه غنى ، أو لقصر من القصور ، أو لحاكم من الحكام ، ولكن الموقف الفنى الجديد الذى طالبت به الرومانسية هو استقلال الفنان وحرية وصدق صلتة بالحياة .

ولم يكن هذا المعنى الثورى للرومانسية هو معناها فى الأدب العربى والوطن العربى فقط ، بل هو معناها أيضاً فى الأدب الأوروبى والحياة الأوروبية ، فقد كان الرومانسيون الأوروبيون ثائرين ضد الأرستقراطية والأنظمة الفاسدة ، كانوا من دعاة الحرية والأنظمة الجمهورية ، هكذا كان بيرون ، وكذلك كان أبو الرومانسية الأوروبية : جان جاك روسو . أما

(1) هناك لحسن الحظ دراسة طويلة ممتازة عن العلاقة بين الشابى وجبران ، كتبها الأديب العربى الليبى محمد خليفة التليسى وهى دراسة تعالج بالتفصيل كل التأثيرات الجبرانية فى شعر الشابى وآرائه .

شيلي الشاعر الإنجليزي الرومانسي الكبير فكان يقول : (إنني أحمل في جوانحي شهوة لإصلاح العالم) . وكان يقول أيضاً : (الشعراء هم المرايا التي تعكس الظلال الماردة التي يلقيها المستقبل على الحاضر . هم الأبواق التي تدعو إلى المعركة ، هم القوة التي تحرك الأشياء ولا يحركها شيء ، الشعراء هم شرار العالم الذين لم يعترف بهم إنسان) . ولقد أعلن شيلي الحرب على ثالوث الظلم في نظره والذي يتكوّن من : الملوك والطغاة والقساوسة .

وهكذا تحس أن الشاعر في المدرسة الرومانسية هو مصلح وثورى وداعية تغيير للمجتمع . والشاعر الرومانسي يميل دائماً إلى الأفكار المثالية ، إلى التطرف والمبالغة في الإحساس ، والبحث عن مثل أعلى رفيع للجمال والقوة والخير .

وهذه الصورة المثالية للعالم وللشاعر الإنسانية ، وهذه المبالغة والتطرف أدت إلى نتائج عملية كثيرة خطيرة بالنسبة للمدرسة الرومانسية ، حتى في أشخاص شعراء هذه المدرسة وحياتهم الخاصة ، فقد انتحر الشاعر الرومانسي الإنجليزي (تشاترتون) احتجاجاً على قبح الحياة الإنجليزية وعدم تذوقها للجمال كما قال الشاعر المنتحر نفسه ، وانطلق بيرون للأشترار في حرب تحرير اليونان من الأتراك وظل في المعركة حتى مات بالحمى سنة ١٨٢٤ ، أما شيلي فقد ظل يغني وينشد للحرية حتى مات غريقاً سنة ١٨٢٢ ، وقبل هؤلاء جميعاً كان جان جاك روسو في فرنسا ينادى بتغيير المجتمع الإنساني حتى يصبح أكثر عدلاً ونظاماً ، وكانت كتابات هذا الرومانسي الذي ينادى بجمال الطبيعة وجمال الفطرة الإنسانية ... كانت كتابات روسو تثير الحكومة والكنيسة والطبقات الأرستقراطية ، وكان يضطر إلى التنقل من بلد إلى بلد ، بل ويضطر إلى التكرار تحت أسماء مستعارة حتى يتجنب مطاردة الحكام ورجال الكنيسة وأفراد الطبقة الأرستقراطية التي تخشى

منه على نفوذها .

تلك هى صورة من المواقف العملية التى أدت إليها الثورة الرومانسية فى الغرب ولم تختلف الثورة الرومانسية العربية فى طبيعتها عن الرومانسية الغربية ، فكانت الرومانسية العربية أيضاً تحلم بتحقيق صورة مثالية كاملة للمجتمع ، وتحلم بتحقيق صورة مليئة بالحياة والصدق للإنسان العربى بدلاً من صورته الحاملة المليئة بالكسل الروحى والمادى .

كانت الرومانسية فى بلادنا وفى الغرب مبالغة وطموحاً إلى الحياة المثالية ولكنها كانت كما قال عنها (جوركى) :

(أكثر المواقف التى عرفها البشر إنسانية ، إنها تغالى ... طبعاً ، ولكنها تغالى دائماً فى جانب الخير ، لتثبت كم هو عظيم ذلك الظمأ الدائم الذى يعانيه الناس لهذا الخير) .

وقد شملت الحركة الرومانسية عندنا كثيراً من المجالات الرئيسية ، ففى المجال الوطنى شهدت بداية القرن العشرين فى مصر زعيماً رومانسياً من الطراز الأول ، كان كل همهم أن يوقظ العاطفة الوطنية ؛ ويشعل الإحساس بحب الوطن فى النفوس ، وكان يتحدث عن الوطن حديث الحب العاشق أكثر منه حديث الزعيم المصلح ، ذلك هو مصطفى كامل ، ولو قرأنا خطاب مصطفى كامل لوجدناها نوعاً من العاطفة الرومانسية ، التى تهم بمثال خيالى جميل للوطن ...

كان يقول على سبيل المثال :

(بلادى . بلادى . لك حى وفؤادى . لك حياتى ووجودى . لك دمى ونفسى . لك عقلى ولسانى لك لى وجنانى . فأنت أنت الحياة) (ألا أيها اللائمون ... انظروها وتأملوها وطوفوها ، وأقرأوا صحف ماضيها ، واسألوا

الزائرين لها من أطراف الأرض ، هل خلق الله وطنًا أعلى مقدمًا وأسمى شأنًا وأجمل طبيعة وأجل آثارًا وأغنى تربة وأصفى سماه وأعذب ماء وأدعى للحب والشغف من هذا الوطن العزيز) ؟.

تلك هي كلمات مصطفى كامل ، وهي كلمات عاشق رومانسي يتخيل الوطن حبيبة جميلة ، وينظر إليه نظرة عاطفية سامية رقيقة مندفة .

ذلك مثال من ميدان السياسة وهو الميدان الذى تأثر وتشعب بروح الثورة الرومانسية فى الوطن العربى ، وهناك نماذج عملية عديدة أخرى مثل الشهيد عمر المختار فى ليبيا ، والشهيد يوسف العظمة فى سوريا ، وهما رجلان كانا يحاربان حربًا عنيفة بقوى ضعيفة إلى أبعد حد ، ولكنهما كانا بطلين يعشقان حتى الموت كل ما له صلة بالوطن وتراب الوطن .

وبالطبع كانت هذه الروح الثورية الرومانسية متغلغلة فى الميدان الاجتماعى أيضًا فظهرت دعوة تحرير المرأة فى مصر ، وتجاوبت أصدائها فى تونس ، وفى شتى أنحاء الوطن العربى .

وكان الأدب فى مقدمة أشكال التعبير عن روح العصر الرومانسى ، وكان الشابي قد شرب هذه الروح وتأثر بها ثم عبر عنها ومثلها خير تمثيل ، وفى هذا الميدان التقى يحران الذى كان رائدًا من رواد المدرسة الرومانسية ، والذى كان يدعو بحماس إلى أهم مبادئ هذه المدرسة : استقلال الفنان عن التبعية لغير نفسه ومشاعره ، وخاصة تلك التبعية للطبقات الأرستقراطية والحاكمة ، وتحرير المرأة من الجمود والدعوة إلى احترامها وخروجها إلى ميدان الحياة وتفاعلها مع الرجل فى هذا الميدان ، والنظر إليها أيضًا على أنها شعور وعقل ، لا على أنها جسد ووعاء للذة الحسية وحسب ، والدعوة إلى الاهتمام بالطبيعة والفطرة الإنسانية ، ففى الطبيعة تذيب للحواس وتدريب للذوق وفيها تعميق لإدراك الإنسان لهذا العالم .

هنا التقى الشابي بجبران ، ووجد فيه رفيقاً صادقاً لروحه ومشاعره ، واستطاع الشابي بقوة مواهبه أن يتفوق — شعرياً — في التعبير عن هذه الآراء والأفكار .

هنا جماعة أخرى هاجر إليها الشابي بروحه ، بعد إحساسه بالغربة في وطنه ، تلك الجماعة هي (جماعة أبوللو) التي أنشأها في مصر الدكتور أحمد زكي أبو شادي ، وقد ضمت هذه الجماعة معظم الشعراء الشبان البارزين في تلك الفترة مثل عليّ محمود طه وناجي ، وكان هؤلاء الشبان جميعاً من الشعراء الرومانسيين المحددين .

وقد رحبت جماعة (أبوللو) ومجلتها بالشابي ترحيباً كبيراً ، وفي الوقت الذي كانت صحف تونس ترفض فيه نشر قصائد الشابي ، أو تنشرها في زوايا مهملة منها ، تلقى أبو شادي رائد (جمعية أبوللو) شعر الشابي بالترحيب العميق ، ونشر قصائده في أبرز صفحات مجلة (أبو للو) ونشأت على البعد بين أبي شادي في مصر والشابي في تونس صداقة خصبة ، ومن خلال مجلة (أبو للو) أطل الشابي على جماهير القراء في الوطن العربي ، وكانت هذه هي الفرصة الأولى التي أتاحت للشابي ، حتى ينشر شعره على نطاق واسع .

ولم يكن ترحيب (أبوللو) بالشابي مصادفة ، بل كان (التقاءً فنياً وفكرياً) عميقاً ، فقد قامت جماعة (أبوللو) لتنادي بنفس الأهداف والمبادئ التي كان الشابي يؤمن بها ويحلم بتحقيقها ، فقد جعلت الجمعية من بين مبادئها الأساسية (السمو بالشعر العربي وتوجيه جهود الشعراء توجيهاً شريفاً ، ومناصرة النهضة الفنية في عالم الشعر) .

لقد التقى الشابي بجماعة تفكر بنفس الطريقة التي يفكر بها ... وكان هذا اللقاء مساندة لروح الشابي وفرصة له حتى يبدع أجمل أغانيه .